أزمة تحطيم الأيقونات وتحول مملكة الفرنجة: قراءة نقدية في أثر الفتوحات الإسلامية غير المباشر (٧١٧–٨٠٠م)

د. خضر عيد السرحان

أستاذ مشارك/ رئيس قسم التاريخ، جامعة آل البيت، الاردن

khader@aabu.edu.jo ORCID: https://orcid.org/0000-0003-2603-9344

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٦/٩/١٥

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٦/٩/٢٩

الملخص

تبحث هذه الدراسة في صلة نزاع الأيقونات البيزنطي (٧٢٦–٧٧٥م) بتحول مملكة الفرنجة والغرب اللاتيني في القرن الثامن، وفي القدر الذي يصح أن يُنسب فيه هذا التحول إلى ضغط الفتوحات الإسلامية. وتختبر فرضية مؤداها أن الفتوحات لم تكن سبباً مباشراً في تحول الغرب، وإنما أثّرت من طريق غير مباشر في حال بيزنطة: فقد ضاقت رقعتها، وتزعزعت ثقة أهلها بنصرة الله لهم، واشتد الجدل في تكريم الصور داخل الإمبراطورية، وتزامن ذلك مع عجزها عن حماية إيطاليا من اللومبارد. أما اتجاه البابوية إلى ملوك الفرنجة فقد تهيأت أسبابه في عقود سبقت سنة ٧٥٤م، وكان الدافع إليه خوف روما من اللومبارد وحاجة بيبين إلى ما يسوّغ ملكه، ولم يكن نزاع الصور إلا عاملاً زاد الخلاف بين روما والقسطنطينية عمقاً. وأما حركة التعليم في بلاط شارل فقد بدأت قبل ظهور كتب شارل (٧٩١–٧٩٣م) ومجمع فرانكفورت (٧٩٤م)، وإنما أتاح السجال في مجمع نيقية الثاني (٧٨٧م) مناسبة لتحديد موقف لاهوتي غربي خاص. وتتبع الدراسة المنهج التاريخي النقدي المقارن في قراءة الحوليات البيزنطية والسير البابوية والمصادر الإسلامية، وتفيد مما نشره الدارسون من مسكوكات وآثار. وتنتهي إلى أن النزاع لم يصنع التحول الغربي، وإنما أسرعه وكشف عن بعض ملامحه، وأن لهذا التحول روافد أنجلوسكسونية ولومباردية وقوطية إيبيرية.

الكلمات المفتاحية: تحطيم الأيقونات؛ ليو الثالث؛ قسطنطين الخامس؛ مملكة الفرنجة؛ كتب شارل؛ مجمع فرانكفورت؛ منحة بيبين؛ إكسرخسية رافينا.

The Iconoclast Crisis and the Transformation of the Frankish Kingdom: A Critical Reading of the Indirect Impact of the Islamic Conquests (717–800 CE)

Dr. Khader Eid Al-Sarhan

Associate Professor / Head of the Department of History, Al-al-Bayt University, Jordan

khader@aabu.edu.jo ORCID: https://orcid.org/0000-0003-2603-9344

Date received: 15/9/2026
Acceptance date: 29/9/2026

Abstract

This study examines the relation between Byzantine Iconoclasm (726–775 CE) and the transformation of the Frankish kingdom and the Latin West in the eighth century, and asks how far that transformation may be ascribed to the pressure of the Islamic conquests. It tests the view that the conquests were not a direct cause, but acted indirectly on Byzantium: its territory shrank, confidence in divine favour was shaken, debate over the veneration of images intensified, and the empire proved unable to defend Italy against the Lombards. The papal turn to the Frankish kings had been prepared by developments well before 754, and was driven chiefly by fear of the Lombards and by Pippin's need for a justification of his kingship; the image dispute deepened the estrangement but did not cause it. The Carolingian educational effort began before the Opus Caroli regis (791–793) and the Council of Frankfurt (794); the quarrel over the Second Council of Nicaea (787) gave it an occasion to define a distinct Western theological position. The study follows a comparative historical-critical method applied to Byzantine chronicles, papal biographies and Arabic historical sources, and draws on published numismatic and archaeological studies. It concludes that the controversy did not create the Western revival but hastened it and brought some of its features into view, and that the revival drew on Anglo-Saxon, Lombard and Visigothic-Iberian sources.

Keywords: Byzantine Iconoclasm; Leo III; Constantine V; Frankish kingdom; Libri Carolini; Council of Frankfurt; Donation of Pippin; Exarchate of Ravenna.

المقدمة

موضوع الدراسة وأهميتها

تمتد الحقبة الواقعة بين ارتقاء ليو الثالث العرش الإمبراطوري في القسطنطينية (٧١٧م) وتتويج شارلمان إمبراطوراً في روما (٨٠٠م) على مساحة زمنية شهدت أعظم التحولات في تاريخ العصور الوسطى: فقد تصدعت الرابطة السياسية والكنسية التي ربطت روما ببيزنطة لقرون، واتجه أساقفة روما شمالاً نحو ملوك الفرنجة لنسج تحالف سياسي–ديني جديد، وتزامنت هذه التحولات مع انطلاق نهضة ثقافية وتعليمية رعاها البلاط الكارولنجي [٣، ج١، ص ١٦٨؛ ٢٦، ص ٣٤٤]. وخلال هذه الحقبة بالذات، اندلعت في بيزنطة أزمة دينية حادة عُرفت بنزاع تحطيم الأيقونات (Iconoclasm)، ارتبطت بإجراءات الإمبراطور ليو الثالث (٧١٧–٧٤١م) وتكرست لاهوتياً وقمعياً في عهد ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١–٧٧٥م) بموجب قرارات مجمع هيريا (٧٥٤م) [٤، ص ٢١٢؛ ١٢، ص ١٥٦].

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من تصديها للخلل المنهجي الشائع في كثير من الأدبيات التاريخية، والمتمثل في صياغة "سلسلة سببية خطية مفرطة في التبسيط": تبدأ بالفتوحات الإسلامية، التي تُنتج نزاع الصور في بيزنطة، فيترتب عليه فوراً انشقاق روما، فتحالفها مع الفرنجة، فبزوغ النهضة الكارولنجية. إن فحص هذه السلسلة بالنظر في كل حلقة منها على حدة على ضوء المصادر المعاصرة والآثار المادية يُعد ضرورة علمية لفرز الوقائع المثبتة وثائقياً عن الاستنتاجات الظنية والخلط الزمني المتوارث.

إشكالية الدراسة وأسئلتها

تتمحور إشكالية الدراسة حول السؤال الرئيس الآتي: إلى أي مدى، وبأي وجوه تاريخية ولاهوتية، أسهم نزاع تحطيم الأيقونات البيزنطي — بوصفه انعكاساً غير مباشر لتداعيات الفتوحات الإسلامية — في توجيه البابوية نحو الفرنجة وفي تحول مملكة الفرنجة بين سنتي ٧١٧م و٨٠٠م؟

ويتفرع عن هذا الإشكال خمسة أسئلة تفصيلية:

١. ما الحجم الحقيقي لأثر حصار القسطنطينية (٧١٧–٧١٨م) وضياع مقاطعات الشرق البيزنطي في سياسات ليو الثالث الدينية، وهل كان للسجال العقدي الإسلامي–المسيحي دور مباشر في قراراته؟

٢. ما الأسباب العسكرية والسياسية الحاسمة لسقوط إكسرخسية رافينا سنة ٧٥١م، وهل كان الخلاف حول الأيقونات هو الدافع الرئيس لانفصال روما عن القسطنطينية؟

٣. كيف تطورت العلاقة بين البابوية وبيت بيبين سياسياً وتتويجياً وصولاً إلى مسح سان دوني (٧٥٤م) ومنحة بيبين (٧٥٦م)؟

٤. ما الموضع الحقيقي للسجال ضد مجمع نيقية الثاني (٧٨٧م) وكتب شارل (Libri Carolini) في مسار النهضة التعليمية والخطية في بلاط الفرنجة؟

٥. ما القيمة التاريخية لما يُشاع عن هجرة رهبان الشرق الفارين من الاضطهاد وأثرهم المزعوم في عمارة الغرب وفنونه، ولا سيما مصلى جيرميني–دي–بريه؟

فرضيات الدراسة

الفرضية الرئيسة: لم يكن نزاع الأيقونات سبباً مستقلاً وكافياً بذاته لإحداث التحول الغربي، بل كان عاملاً عقدياً محفزاً عمّق خلافات سياسية واقتصادية قائمة أصلاً، وتفاعل مع عجز بيزنطة الدفاعي عن إيطاليا ومع حاجة الكارولنجيين الملحة للشرعية الدينية.

الفرضيات الفرعية:

١. إجراءات ليو الثالث لم تنبع من تقليد المسلمين، بل كانت رد فعل بيزنطي داخلي لأزمة وجودية عسكرية وطبيعية فُسرت على أنها سخط إلهي، تزامنت مع مناخ سجالي إبراهيمي حول التوحيد وتجسيد الإله.

٢. ابتعاد البابوية عن بيزنطة تم تدريجياً عبر عقود، محكوماً بالخطر اللومباردي المباشر، وتعود اتصالاتها بالفرنجة إلى عهد شارل مارتل قبل مجمع هيريا.

٣. الإحياء الثقافي الكارولنجي قام على إصلاحات في الكنيسة والإدارة سبقت وصول ترجمة مجمع نيقية الثاني، غير أن السجال منح علماء البلاط فرصة صياغة موقف لاهوتي لاتيني متميز عن الشرق البيزنطي.

أهداف الدراسة

١. إعادة بناء السلسلة السببية التاريخية ونقد حلقاتها على ضوء نصوص المصادر الأولية.

٢. ضبط ترتيب الأحداث في الزمان وتصحيح التواريخ المضطربة في الأدبيات الشائعة (مراسيم الأيقونات، سقوط المدن، والمجامع الكنسية).

٣. تحديد الروافد الفكرية للنهضة الكارولنجية وتبيان أصولها الأنجلوسكسونية، والإيطالية، والقوطية الإيبيرية.

٤. مراجعة وتقويم أطروحة هنري بيرين (Henri Pirenne) في ضوء الشواهد الأثرية والمسكوكات والوثائق المكتشفة حديثاً.

٥. التمييز المنهجي الصارم بين الأخبار المعاصرة المنقولة وثائقياً، والتفسيرات اللاحقة للمؤرخين، والافتراضات غير المبرهنة.

حدود الدراسة

- الحدود الزمانية: تمتد من اعتلاء ليو الثالث العرش الإمبراطوري سنة ٧١٧م حتى تتويج شارلمان إمبراطوراً للغرب سنة ٨٠٠م، مع امتداد تحليلي إلى سنة ٨٠٦م لتدقيق تدشين مصلى جيرميني–دي–بريه.
- الحدود المكانية: القسطنطينية وآسيا الصغرى، بلاد الشام الأموية، شبه الجزيرة الإيطالية (روما، رافينا، مملكة اللومبارد)، وغرب أوروبا (بلاد الغال ومملكة الفرنجة).
- الحدود الموضوعية: دراسة التقاطعات السياسية والعقدية بين نزاع الأيقونات، والتحالف البابوي–الفرنجي، والنهضة التعليمية الكارولنجية، دون الاستطراد في التفاصيل الجمالية للفن البيزنطي أو المسائل الاقتصادية البحتة إلا بالقدر الخادم للتحليل التاريخي.

الدراسات السابقة

تتوزع الأدبيات الحديثة ذات الصلة بموضوع البحث على ثلاثة محاور رئيسة:

- المحور الأول: أطروحة نشأة الغرب وانقطاع المتوسط: افتتح هنري بيرين هذا النقاش بكتابه الشهير محمد وشارلمان [٤٢، ص ١٤٥]، جاعلاً الفتوحات الإسلامية العامل الحاسم في تحطيم الوحدة الاقتصادية للمتوسط ودفع أوروبا نحو الانغلاق الإقطاعي، ومقرراً أن شارلمان لا يُتصور بغير محمد. غير أن بيتر براون أعاد النظر في هذا الطرح مبيناً اتساع تحولات العصور القديمة المتأخرة [١٠، ص ٢٥]. وقوّضت

الشواهد الأثرية الحديثة ركائز بيرين الاقتصادية؛ إذ أثبت هودجز ووايتهاوس أن ضمور التجارة بدأ قبل الفتوحات وكان تحولاً بطيئاً [٢٧، ص ٥٤]، بينما وثّق ماكورميك استمرار التجارة والاتصالات البحرية عبر المتوسط خلال القرنين الثامن والتاسع [٣٣، ص ١١٥]، وأكد كريس ويكهام استقلالية التحولات الغربية وتجذرها المحلي [٥٠، ص ٨٢].

- المحور الثاني: تاريخ نزاع الأيقونات وخلفياته الشرقية: فحص كيتزنغر صعود ظاهرة تكريم الأيقونات قبل اندلاع الأزمة [٢٩، ص ٨٥]، وربط بيتر براون النزاع بأزمة تحديد هوية القداسة وحماة المدن في مجتمع مأزوم عسكرياً [٩، ص ٤]. وقدّم ستيفن غيرو دراستين معمقتين لعصري ليو الثالث وقسطنطين الخامس مستفيداً من المصادر السريانية والشرقية [٢١، ص ٥٩؛ ٢٢، ص ٤٨]. وقامت ليزلي بروبيكر وجون هالدون بتنقية تاريخ الحقبة من الإسقاطات اللاحقة كاشفين هشاشة المرويات المنسوبة للبدايات الأولى [١٢، ص ٨٨؛ ١١، ص ١٢]. وفي المسألة الإسلامية، حقق فاسيلييف وسهنر مرسوم يزيد الثاني وأبعاده التاريخية [٤٩، ص ٢٥؛ ٤٤، ص ٨].
- المحور الثالث: البابوية والتحالف الكارولنجي واللاهوت الغربي: أوضح توماس نوبل تشكل كيان البابوية السياسي ونشأة "جمهورية القديس بطرس" تحت ضغط الخطر اللومباردي لا نزاع الصور وحده [٣٧، ص ٥٥]، في حين أكدت جوديث هيرين تفاعل الأزمات المالية والعقدية مع عجز بيزنطة الدفاعي في دفع روما نحو الفرنجة [٢٦، ص ٣٥٠]. وبحث إيكونومو التأثيرات الشرقية في روما في ظل "البابوية البيزنطية" [١٨، ص ١٩٩]. وفي الشأن الكارولنجي، بيّنت مكيتريك وكولينز وكوستامبيس وجوه الإصلاح التعليمي والإداري [٣٤، ص ٦٤؛ ١٤، ص ١١٠؛ ١٥، ص ١٢٠]، وتناولت آن فريمان وسيليا شازل ونوبل لاهوت كتب شارل وموقف ثيودولف الأورلياني المناهض لمجمع نيقية الثاني [١٩، ص ٦٨؛ ١٣، ص ١٦٥؛ ٢٠، ص ٤٥؛ ٣٨، ص ١٥٨].

أما المكتبة التاريخية العربية فتقتصر معالجتها غالباً على مسوح عامة كما عند العريني [٤] وعاشور [٣]، وتفتقر إلى دراسات تخصصية نقدية تربط السجال البيزنطي بالتحول الكارولنجي. وهنا تبرز إضافة هذه الدراسة في ردم هذه الفجوة.

ويلخص الجدول (١) ما تقدم من اتجاهات الدارسين، ويبين موضع نزاع الصور عند كل منهم ووجه تقويمه.

الجدول (١): مقارنة تحليلية لأبرز التفسيرات التاريخية لتحول الغرب وعلاقتها بنزاع الصور

الدراسة والباحث	محرك التحول الغربي الأساسي	موضع نزاع الصور في التحليل	وجه النقد والتقويم المنهجي
بيرين [٤٢]	انقطاع تجارة البحر المتوسط بسبب الفتوحات الإسلامية.	ظاهرة ثانوية تابعة لانعزال الغرب وانقطاعه عن الشرق.	دحضته الكشوف الأثرية والمسكوكات التي أثبتت استمرار الملاحة وتبادلات المتوسط.
هيرين [٢٦]	عجز بيزنطة العسكري والخلاف المالي والعقدي مع روما.	عامل أساسي عمّق القطيعة المذهبية والسياسية.	تحليل رصين، شريطة عدم فصله عن ضغط اللومبارد العسكري في إيطاليا.
نوبل [٣٧]	التهديد اللومباردي المباشر وسعي روما لتأمين كيانها.	عامل سياسي مساعد وليس العلة المنشئة للتحالف.	يقدم تفسيراً واقعياً يوافق المراسلات المعاصرة.
براون [٩]	تبدل مواضع القداسة والمقدسات داخل الإمبراطورية البيزنطية.	أزمة هوية دينية واجتماعية داخلية حول تمثيل المقدس.	يعالج العمق البيزنطي بدقة، لكنه لا يغطي انعكاساته السياسية على الفرنجة.
بروبيكر وهالدون [١٢]	التفاعل التراكمي للأزمات العسكرية وظروف الأناضول.	حركة تشكلت تدريجياً وضخّم خصومها إجراءات بداياتها.	تحقيق وثائقي دقيق ينفي القول بتأثير خارجي مباشر.

المواد والأساليب

تعتمد الدراسة المنهج التاريخي النقدي المقارن بالنظر في النصوص في سياقاتها الزمنية، ومقابلة الروايات المتباينة، وفحص انحيازات المدونين وفق المعايير الآتية:

- المصادر البيزنطية: التعامل الحذر مع حولية ثيوفانس المعرّف (Theophanes the Confessor) وتاريخ البطريرك نقيفوروس (Nikephoros)، لكونهما كُتبا بعد انتصار حزب مكرّمي الصور، مما أدى إلى طمس أو تشويه نصوص المحطمين ولم يبقَ منها إلا ما أورده خصومهم بغرض التفنيد [٤٨، ص ٥٤٥؛ ١٢، ص ٧٢].

- المصادر اللاتينية والبابوية: اعتماد سير الباباوات (Liber Pontificalis) بوصفها معبرة عن وجهة نظر البابوية الرومانية وتطلعاتها إلى الاستقلال [١٦، ص ٣]، ومقابلة ذلك بالمدونة الكارولنجية (Codex Epistolaris Carolinus) التي جمعها بلاط شارلمان سنة ٧٩١م لخدمة أهدافه السياسية [٣٥، ص ١٤].
- المصادر الإسلامية: مراجعة التواريخ والفتوح، ولا سيما تاريخ الرسل والملوك للطبري وفتوح البلدان للبلاذري، لتوثيق الجوانب العسكرية والتحولات الإدارية والسياسية الإسلامية المؤثرة في البيئة البيزنطية.
- الشواهد المادية والمسكوكات: اعتماد التحقيقات النمية لمسكوكات جستنيان الثاني والأمويين [٢٤، ص ٥٦٨؛ ٢٣، ص ٤٥]، والمسوحات الأثرية لأرضيات الفسيفساء في كنائس بلاد الشام [٤١، ص ٣٥].

النتائج والمناقشة

أولا: السياق المشرقي والبيزنطي (٧١٧–٧٢٦م)

حصار القسطنطينية وضيق رقعة الإمبراطورية

ارتكز الفكر السياسي البيزنطي على عقيدة مقتضاها أن الإمبراطورية هي الأداة الأرضية للملكوت الإلهي، وأن أرثوذكسية العقيدة تكفل النصر العسكري المحتوم [٢٥، ص ٢٨؛ ٣٩، ص ١٤٧]. غير أن نجاح الفتوحات الإسلامية في انتزاع الشام ومصر وشمال إفريقيا وجّه ضربة قاصمة لهذه المسلّمة. وتجسد هذا التهديد في الحصار الأموي الثاني للقسطنطينية (٩٨–٩٩هـ/٧١٧–٧١٨م) بقيادة مسلمة بن عبد الملك [٢، ج٦، ص ٥٣٠–٥٣٤].

وتثبت الحوليات التاريخية أن ليو الثالث ارتقى العرش وتُوّج في كنيسة آيا صوفيا في ٢٥ آذار/مارس ٧١٧م، في حين بدأ الحصار العربي في ١٥ آب/أغسطس من السنة نفسها [٤٨، ص ٥٤٥؛ ٣٦، ص ١١٥]. وعليه، لم يكن ليو إفرازاً لظروف الحصار بل سبقها، ونجح في استثمار متانة الأسوار، والنار الإغريقية، وقسوة الشتاء، والتحالف مع ملك البلغار ترفيل (Tervel) لفك الحصار وهزيمة القوات الأموية [٤٨، ص ٥٤٧–٥٤٩].

وينحدر ليو الثالث من مدينة جرمانيكيا (مرعش) في شمال الشام، وإطلاق لقب "الإيسوري" عليه خطأ تاريخي متوارث صوّبه البحث الحديث [١٢، ص ٦٩]. وقد عمدت مصادر مناوئي تحطيم الأيقونات إلى اتهامه بـ "الميل إلى تعاليم العرب واليهود" [٤٨، ص ٥٥٩]، وهو اتهام سجالي كنسي لا يصح اتخاذه دليلاً على

اعتناق أفكار المسلمين. وتورد المصادر البيزنطية أن انفجاراً بركانياً هائلاً ضرب بحر إيجه بين جزيرتي ثيرا وثيراسيا سنة ٧٢٦م، نافثاً الحمم والرماد حتى شواطئ آسيا الصغرى [٤٨، ص ٥٥٩؛ ٣٦، ص ١٢١]؛ وقد فسّر البلاط الإمبراطوري هذا الحدث على أنه تعبير صريح عن غضب الله الناتج عن عبادة الأوثان المتمثلة في تكريم الأيقونات، مستندين إلى نص سفر الخروج (٢٠: ٤): لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَّا.

حرب الرموز والنقود والسجال الديني

لم ينبثق الخلاف حول الصور بصورة فجائية، بل سبقه سجال رمزي محتدم حول تمثيل الهوية الدينية بين دمشق والقسطنطينية، يتضح وفق التسلسل الآتي:

- سنة ٦٩٢م: مجمع ترولو (Quinisext/Trullo) يصدر قانونه رقم (٨٢) موجباً تصوير المسيح بهيئته البشرية عوضاً عن رمز الحمل القديم، في تأكيد حاسم على حقيقة التجسد البشري [٣٢، مج ١١، العمود ٩٧٧].
- نحو ٦٩٢–٦٩٥م: الإمبراطور جستنيان الثاني يسك عملة ذهبية (Solidus) تحمل للمرة الأولى صورة المسيح ضابط الكل (Pantokrator) على الوجه، مع لقب الإمبراطور "خادم المسيح" على الظهر [٢٤، ص ٥٦٨–٥٧٠].
- نحو ٦٩٣–٦٩٧م: الخليفة عبد الملك بن مروان يصدر دنانير "الخليفة الواقف" كصيغة انتقالية يظهر فيها ممسكاً سيفه رداً على التحدي البصري البيزنطي [٢٣، ص ٤٥–٤٨].
- سنة ٧٧هـ / ٦٩٦–٦٩٧م: إنجاز الإصلاح النقدي الأموي التجريدي، بإزالة الصور كلياً وإحلال نصوص التوحيد القرآنية مكانها [١، ص ٤٥٢؛ ٢٣، ص ٤٩]، مسبوقاً بنقوش قبة الصخرة التجريدية المناهضة للتجسيد والتثليث (٧٢هـ/٦٩٢م).
- سنة ٧٢١م أو ٧٢٣م: صدور مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك القاضي بإزالة الصور والتماثيل [٤٩، ص ٢٨؛ ٤٤، ص ١٢]. ومع أن نص المرسوم لم يصل في وثيقة رسمية أصلية، إلا أن آثاره ظهرت في كنائس بلاد الشام.
- نحو ٧٢٦–٧٣٠م: شُروع ليو الثالث في تدابيره ضد الأيقونات في القسطنطينية.

إن الأسبقية الزمنية لمرسوم يزيد لا تثبت بالضرورة اقتباس ليو لسياساته من دمشق؛ فغاية ما تؤكده الوقائع هو وجود مناخ عام من التدافع العقدي في البلاد المشتركة بين الشام والأناضول عيّر فيه المسلمون خصومهم

بالسجود للحجارة والأخشاب [٢١، ص ٦١]. كما أن كشط وتخريب الفسيفساء في كنائس الأردن وفلسطين لا يعود حصراً إلى مرسوم يزيد؛ فأرضية كنيسة القديس إسطفانوس في أم الرصاص مؤرخة سنة ٧٨٥م، مما يثبت استمرار أو تأخر بعض التدابير لما بعد العصر الأموي [٤١، ص ٣٥؛ ٤٥، ص ١٨٠]. ويؤكد ذلك ما ورد في رسائل البطريرك جرمانوس الأول المحفوظة في مجمع نيقية الثاني، ومفادها أن التململ ضد الصور قاده أساقفة من عمق آسيا الصغرى كقسطنطين أسقف ناكوليا وتوما أسقف كلاوديوبوليس بدافع تطهير العقيدة المسيحية [٣٢، مج ١٣، الأعمدة ١٠٥–١٢٨؛ ١٢، ص ٩٨].

ثانياً: نزاع الصور في بيزنطة (٧٢٦–٧٥٤م)

نقد خبر بوابة خالكي ومرسوم سنة ٧٣٠م

شاع في الروايات التاريخية المتأخرة أن ليو الثالث أمر سنة ٧٢٦م بإزالة أيقونة المسيح الشهيرة المنصوبة على بوابة قصر خالكي (Chalke)، وأن جموعاً نسائية ثارت دفاعاً عنها وقتلت الضابط المنفذ. غير أن التحقيق التاريخي رأى أن هذه الرواية تفتقر لأي سند وثائقي معاصر، وتعود إلى أدبيات المناقب المتأخرة، ولا سيما سيرة القديس ستيفان الأصغر المكتوبة سنة ٨٠٩م [٦، ص ٤٤٨؛ ٧، ص ٣٢]، وتبعتها بروبيكر في ترجيح أن الخبر من صنع الخصومة اللاحقة لليو الثالث [١١، ص ١٥].

أما التحول الحقيقي فوقع في كانون الثاني/يناير ٧٣٠م، حين عقد ليو مجلساً استشارياً صامتاً (Silention) أعلن فيه موقفه المناهض للصور، مما دفع البطريرك جرمانوس الأول للاستقالة أو العزل لرفضه الرضوخ للإمبراطور دون انعقاد مجمع مسكوني، وعُين مكانه البطريرك أناستاسيوس [٤٨، ص ٥٦٥؛ ٣٦، ص ١٢٣]. ويرى المحققون المعاصرون أنه لم يصدر "مرسوم عام مكتوب وشامل" بحظر الصور سنة ٧٣٠م، بل كانت الأزمة تطوراً تدريجياً في الممارسة الإمبراطورية [١٢، ص ١١٢].

لاهوت قسطنطين الخامس ومجمع هيريا (٧٥٤م)

نقل قسطنطين الخامس الجدل من المستوى الشعبي والسلوكي إلى التأصيل الكريستولوجي الدقيق. وتكشف مقتطفات كتابه الاستجوابات (Peuseis)، التي حفظها البطريرك نقيفوروس للرد عليها، عن حجة منطقية دقيقة حاصلها: إن صورة المسيح إما أن تدعي رسم لاهوته فتسقط في هرطقة مونوفيزية (خلط

الطبيعتين)، أو تدعي رسم ناسوته مجرداً فتسقط في هرطقة نسطورية (فصل الطبيعتين) [٢٢، ص ٣٧–٤٢]. وخلص إلى أن تصوير المسيح بالمواد الصامتة مستحيل، وأن الأيقونة الشرعية الوحيدة الحقة للمسيح هي الخبز والخمر في سر الشكر (القربان المقدس) المحول بالروح القدس [٥، ص ١٨٠].

وعلى هذه الأسس انعقد مجمع هيريا (Hiereia) في قصر هييرية بين شباط وآب ٧٥٤م بمشاركة أكثر من ثلاثمائة أسقف بيزنطي، بغياب مطبق لممثلي كراسي روما والإسكندرية وأنطاكية والقدس لوقوعها خارج النطاق العسكري البيزنطي [٣٢، مج ١٣، الأعمدة ٢٠٥–٣٥٦]. حرم المجمع كل تصوير للمسيح أو القديسين بوصفه وثنية، وأعقبته حملة تضييق سياسية وإدارية واسعة على الرهبان الرافضين للقرارات في ستينيات القرن الثامن [٢٢، ص ١١٢].

الرد المشرقي الأرثوذكسي: يوحنا الدمشقي

في دير مار سابا قرب القدس (أو في دير القيامة وفق ترجيح [٧، ص ٥٥])، وخارج قبضة السلطة البيزنطية وتحت الحماية القانونية للخلافة الأموية، وضع يوحنا الدمشقي (منصور بن سرجون، ت. نحو ٧٤٩م) دفاعه اللاهوتي في ثلاث رسائل دفاعية مشهورة ضد طاعني الأيقونات [٣١، ص ١٥؛ ٢٨، ص ٢٠].

أسس الدمشقي تفرقته الأساسية بين نوعين من العبادة:

١– عبادة اللاتريا (Latreia): وهي عبادة السجود المطلقة الموجهة للخالق وحده.

٢– إكرام البروسكينيزيس (Proskynesis): وهو التوقير والتكريم التواصلي الموجه للشخص المرسوم في الأيقونة وينتقل بالضرورة إلى الأصل المجرد، مستنداً إلى مقولة باسيلوس الكبير: إن إكرام الصورة ينتقل إلى النموذج الأصلي.

وجاء في مقولته المشهورة: إنني لا أعبد المادة، بل أعبد خالق المادة، الذي صار مادة لأجلي ورضي بالسكنى في المادة وصنع خلاصي من خلال المادة [٢٨، ص ٢٩]. كما أسس الدمشقي لمبدأ فصل السلطات حين كتب في مقالته الثالثة مؤكداً أن التدبير العقدي والكنسي موكول للمجامع والرعاة، في حين يقتصر اختصاص الأباطرة على تدبير شؤون الدولة والجند والسياسة المدنية [٢٨، ص ٨٨].

ثالثا: روما والقسطنطينية وملوك الفرنجة (٧٢٧–٧٥٦م)

البابوية البيزنطية وتصدع ولاء روما

خضعت روما لقرنين كاملين (٥٣٧–٧٥٢م) ضمن ما عُرف تاريخياً بـ البابوية البيزنطية، وكان لزاماً على الأسقف المنتخب نيل مصادقة الإمبراطور أو نائبه إكسارخوس رافينا قبل تكريسه [٣٧، ص ١٨؛ ١٨، ص ١٥]. غير أن الخلاف السياسي والكنسي لم يكن وليد أزمة الأيقونات؛ فقد اعتقل الإمبراطور قنسطانز الثاني البابا مرتينوس الأول ونفاه ومات في منفاه سنة ٦٥٥م، وحاول جستنيان الثاني اعتقال البابا سرجيوس الأول لرفضه قرارات مجمع ترولو سنة ٦٩٢م فثار الجيش الروماني دفاعاً عن البابا [١٨، ص ٢٤٥].

وحين فرض ليو الثالث ضرائب إضافية على إيطاليا لتغطية نفقات حروبه، رفض البابا غريغوريوس الثاني (٧١٥–٧٣١م) الجباية وحرّض مدن إيطاليا على التمرد سنة ٧٢٧م [١٦، ص ٥]. وتفاقم النزاع العقدي حين دعا خليفته غريغوريوس الثالث (٧٣١–٧٤١م) إلى مجمع روماني سنة ٧٣١م حرم بموجبه كل من يزيل الصور أو ينتهك حرمتها [١٦، ص ١٨]. جاء الرد الإمبراطوري صارماً؛ إذ صادر ليو ضياع وأوقاف الكنيسة الرومانية في صقلية وكالابريا التي كانت تمول الجهاز البابوي، ونقل الإشراف الإداري والكنسي على إقليم إيليريكوم (Illyricum) وجنوب إيطاليا إلى بطريرك القسطنطينية [٤٨، ص ٥٦٩؛ ٢٦، ص ٣٣٨]. ولم تكن هذه العقوبات دينية فحسب، بل مثلت خنقاً مالياً قاد روما إلى البحث عن حليف بديل.

الخطر اللومباردي، وسقوط رافينا، ومنحة بيبين (٧٥٦م)

في الجبهة الغربية، سقطت الأندلس سنة ٧١١م وتوغلت القوات الإسلامية في سبتمانيا وغاليا حتى استولوا على أربونة سنة ٧١٩م، قبل أن يوقف شارل مارتل هذا المد شمالاً في معركة بلاط الشهداء (بواتييه) سنة ١١٤هـ/٧٣٢م [٣، ج١، ص ١٥٥؛ ١٤، ص ٣٥]. وأمام تفاقم التهديد اللومباردي، أرسل البابا غريغوريوس الثالث سنة ٧٣٩–٧٤٠م استغاثة رسمية إلى رئيس بلاط الفرنجة شارل مارتل، باذلاً له مفاتيح قبر القديس بطرس بوصفها أولى وثائق المدونة الكارولنجية [٣٥، ص ٤٢]. لكن شارل اعتذر عن التدخل العسكري لارتباطه بحلف مع ملك اللومبارد ليوتبراند لصد الغارات البحرية الإسلامية في إقليم بروفانس [٣٧، ص ٤٥]. وتوضح هذه الواقعة أن استنجاد روما بالفرنجة سبق الانقلاب الديني لمجمع هيريا بسنوات طوال، ومحركه الخطر اللومباردي المباشر لا مسألة الأيقونات.

وفي سنة ٧٥١م، اجتاح الملك اللومباردي إيستولف مدينة رافينا وأسقط الإكسرخسية البيزنطية، قاطعاً الرابط الجغرافي والإداري الأخير بين بيزنطة ووسط إيطاليا، ثم تقدم لحصار روما وفرض الجزية على سكانها [٣٧، ص ٦٧]. وكان عجز بيزنطة عن الدفاع راجعاً إلى استنزاف قسطنطين الخامس في حربه الأهلية ضد أرتفاسدوس (٧٤٢–٧٤٣م)، وحملاته على ثغور الشام والجزيرة، واستغلال اضطرابات الثورة العباسية وسقوط الدولة الأموية (١٣٢هـ/٧٥٠م)، والتهديد البلغاري [٣٩، ص ١٦٥؛ ٤٨، ص ٥٧٨].

في العام ذاته (٧٥١م)، أفتى البابا زخارياس لرسل بيبين القصير بأن من يملك مقاليد السلطة الفعلية أولى بحمل لقب الملك، فعُزل شيلدريك الثالث وأُودع ديراً، واعتلى بيبين العرش [٤٦، ص ٣٨]. ولما اشتد الحصار على روما، غادر البابا ستيفان الثاني (Stephen II) إيطاليا متوجهاً إلى بلاد الفرنجة في شتاء ٧٥٣–٧٥٤م، وعقد في بونتيون (Ponthion) حلفاً تاريخياً مع بيبين [١٦، ص ٥٦]. وفي صيف ٧٥٤م، وفي دير سان دوني، كرّس البابا بيبين وابنيه مسحاً بالزيت المقدس، مانحاً إياهم لقب حامي الرومان (Patricius Romanorum) [١٦، ص ٦٠؛ ٣٧، ص ٨٠].

قاد بيبين حملتين مظفرتين على إيستولف سنتي ٧٥٥ و٧٥٦م، وأجبر اللومبارد على الجلاء عن رافينا والمدن الخمس (Pentapolis). وتجاهل بيبين احتجاجات المبعوث الإمبراطوري البيزنطي، ووضع مفاتيح المدن المحررة على مذبح القديس بطرس في روما في الوثيقة التاريخية المعروفة بـ منحة بيبين (٧٥٦م)، مؤسساً النواة المادية لما عُرف بـ جمهورية القديس بطرس (Res Publica Sancti Petri) أو أملاك الكرسي الرسولي، دون أن يصح تسميتها دولة قومية بالمفهوم الحديث [١٦، ص ٧٢؛ ٣٧، ص ٩٣].

ويبين الجدول (٢) أهم ما تغير بين حقبة التبعية لبيزنطة وحقبة الحلف مع الفرنجة.

الجدول (٢): مقارنة بين حقبة التبعية البيزنطية وحقبة الحلف الكارولنجي

وجه المقارنة	إيطاليا قبل سنة ٧٥١م (التبعية البيزنطية)	إيطاليا بعد سنة ٧٥٤م (الحلف الكارولنجي)

وجه المقارنة	إيطاليا قبل سنة ٧٥١م (التبعية البيزنطية)	إيطاليا بعد سنة ٧٥٤م (الحلف الكارولنجي)
سلطة الحماية والدفاع	إمبراطور القسطنطينية ونائبه إكسارخوس رافينا.	ملوك الفرنجة بلقب حامي الرومان (Patricius Romanorum).
شرعية الحكم في الغال	النسب الميروفنجي الوراثي القديم (الملوك الكسالى).	الشرعية الرسولية بالمسح بالزيت الإلهي للبيت الكارولنجي.
الوضع السياسي لوسط إيطاليا	مقاطعة بيزنطية خاضعة للمركز وجبايته المالية.	أملاك القديس بطرس تحت السيادة المباشرة لأسقف روما.
موقف روما العقدي	رفض مراسيم ليو الثالث الصامتة وعزل أناستاسيوس.	استقلال تام عن هيريا، وتحكيم لاهوتي مستقل في نيقية الثاني.

رابعا: السجال اللاهوتي وحركة التعليم في مملكة الفرنجة

مجمع نيقية الثاني (٧٨٧م) والترجمة اللاتينية

عقب وفاة قسطنطين الخامس (٧٧٥م) ثم ابنه ليو الرابع (٧٨٠م)، تولت الإمبراطورة إيريني (Irene) الوصاية على ابنها الصغير قسطنطين السادس. دعت إيريني بالتنسيق مع البطريرك تاراسيوس إلى عقد مجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧م، وحضره ممثلان مفوضان عن البابا أدريان الأول [٢٦، ص ٤١٨]. أقر المجمع بطلان قرارات مجمع هيريا، وأعاد تكريم الصور استناداً إلى تفرقة يوحنا الدمشقي، مقرراً جواز إيقاد الشموع وتبخير الأيقونات بوصفها علائم توقير [٣٢، مج ١٣، الأعمدة ٣٧٣–٤٤٠].

نُقلت وثائق المجمع إلى اللاتينية في روما نقلاً رديئاً أُرسل إلى بلاط شارلمان نحو سنة ٧٩٠م، ولم يصلنا نص هذه الترجمة [١٩، ص ٧٢]. ويرى كثير من الدارسين أن المترجم نقل لفظ التوقير اليوناني (Proskynesis) بلفظ العبادة اللاتيني (Adoratio)؛ فبدا لعلماء البلاط الكارولنجي أن مجمع الشرق قد سقط

في الوثنية الصريحة بإيجاب عبادة الصور المصنوعة كالإله [١٩، ص ٧٥؛ ٣٨، ص ١٦٥]. ومع أن بعض المحققين يرى أن ثيودولف الأورليانى أدرك الفارق الاصطلاحي، إلا أن دافع الرد كان سياسياً ودينياً: تمثل في رفض انفراد بيزنطة بتقرير عقيدة مجمعية تزعم العالمية والشمول دون استشارة أساقفة الغال ومليكهم شارلمان [٣٨، ص ١٧٢].

ويوضح الجدول (٣) المواقف اللاهوتية الثلاثة في مسألة الصور.

الجدول (٣): المقارنة العقدية بين المواقف اللاهوتية الثلاثة حول الصور الدينية

المسألة اللاهوتية	مجمع هيريا (٧٥٤م)	مجمع نيقية الثاني (٧٨٧م)	كتب شارل ومجمع فرانكفورت (٧٩٤م)
حكم الصورة في الكنيسة	الحظر والإزالة التامة من كافة الكنائس.	الإباحة الشرعية مع إيجاب التكريم بالبخور والشموع.	الإباحة للزينة والتذكير التاريخي فقط، وحظر السجود لها.
الطبيعة الأنطولوجية للصورة	مظنة هرطقة كريستولوجية (خلط أو فصل).	قناة مقدسة تنقل التوقير مباشرة إلى الأصل السماوي.	صنعة يدوية بشرية مادية خالية من أي قداسة كامنة.
أوعية ومواضع القداسة	سر الشكر (القربان)، والصليب، والكتاب المقدس.	الأيقونات، الرفات، أسرار الكنيسة، والصليب.	الكتب المقدسة، أسرار الإفخارستيا، رفات الشهداء، والصليب.
المرجعية والسلطة الكنسية	الإمبراطور البيزنطي ومجمعه المسكوني المزعوم.	المجمع الإمبراطوري الشرقي بمباركة روما.	ملك الفرنجة ومجامع مملكته الوطنية، مع احترام كرسي بطرس.

كتب شارل (Libri Carolini) ومجمع فرانكفورت (٧٩٤م)

أوكل شارلمان إلى مستشاره اللاهوتي ثيودولف الأورلياني (Theodulf of Orléans) — وهو عالم قوطي نزح من إيبيريا وأضحى أسقفاً لأورليان — مهمة صياغة الرد الرسمي للبلاط، فألف مصنفه الشهير عمل الملك شارل ضد المجمع (Opus Caroli regis contra synodum) المعروف تاريخياً بـ كتب شارل بين سنتي ٧٩١ و٧٩٣م [٢٠، ص ٨٨]. وتُحفظ مسودة العمل الأصلية ذات الهوامش والتعليقات في مكتبة الفاتيكان برقم (Vat. Lat. ٧٢٠٧)، ونسختها المكتملة في مكتبة الأرسنال بباريس برقم (٦٦٣) [٤٧، ص ٣].

صاغ ثيودولف موقفاً لاهوتياً نقدياً مزدوجاً: رفض تطرف مجمع هيريا في تدمير الصور، ورفض غلو مجمع نيقية الثاني في تكريمها [١٣، ص ١٦٨]. وأرسى قاعدة مؤداها أن الصورة مصنوعة من جماد لا تسكنه نعمة إلهية ولا تستحق ركوعاً أو سجوداً، ومكانها جدران الكنائس لحفظ وقائع الكتاب المقدس وتثقيف الأميين عملاً بالمبدأ الغريغوري الشهير [٢٠، ص ١١٢].

وفي حزيران/يونيو ٧٩٤م، عقد شارلمان مجمع فرانكفورت العام، وأقر في قانونه الثاني إدانة وإسقاط قرارات مجمع نيقية الثاني [٨، ص ٧٣]. وتجاوز المجمع مسألة الأيقونات ليدين هرطقة التبنّوية (Adoptianism) التي نادى بها أساقفة إيبيريا إليباندوس الطليطلي وفيليكس الأورخيلي [١٤، ص ١١٨]. وتضمن الموقف الفرنجي دافعاً سياسياً مبطناً برفض الاعتراف بسلطة إيريني على العالم المسيحي لكونها امرأة استولت على العرش الإمبراطوري [٢٦، ص ٤٣٢]. ورغم دفاع البابا أدريان الأول عن نيقية الثاني في رسالته الجوابية لشارل، إلا أنه تفادى الصدام مع الملك، وظلت كتب شارل وثيقة بلاط سياسية حبيسة الخزائن ولم تُطبع وتُنشر إلا بحلول القرن السادس عشر [٣٨، ص ٢١٥].

التسلسل الزمني لحركة التعليم ونسخ الكتب

يقتضي ضبط الزمان رد القول الشائع بأن الجدل الديني حول الصور هو الذي ولّد حركة الإحياء التعليمي الكارولنجي؛ إذ تكشف الوثائق التاريخية أن الإصلاحات التعليمية انطلقت قبل أزمة الترجمة اللاتينية لمجمع نيقية الثاني بسنوات:

- ٧٤٢–٧٤٣م: المجامع الإصلاحية لبونيفاس في أوستراسيا ونيوستريا بمؤازرة كارلومان وبيبين، لإصلاح الكهنوت وضبط الكتب الدينية [١٥، ص ٤٥].
- نحو ٧٧٦م: استقدام بطرس البيزي النحوي من إيطاليا لتعليم اللاتينية في البلاط عقب سقوط بافيا (٧٧٤م) [١٤، ص ١٠٤].
- ٧٨١–٧٨٢م: لقاء شارلمان بألكوين اليوركي في بارما وانضمامه لقيادة أكاديمية البلاط، وتوافد بولس الشماس وسائر العلماء [١٤، ص ١٠٨].
- ٧٨٩م: صدور المرسوم الملكي التشريعي التحذير العام (Admonitio Generalis)، الذي ألزم الأساقفة والأديرة بتأسيس مدارس لتعليم القراءة والكتابة، والترتيل، والحساب، وتصحيح الكتب الطقسية من أخطاء النساخ [٨، ص ٥٢–٦٢].
- أواخر القرن الثامن: تطوير وتبني الخط الكارولنجي المصغر (Carolingian Minuscule) في أديرة كوربي وسان مارتان بتور، لتيسير القراءة وضبط نصوص الكتاب المقدس [٤٣، ص ٩٢].
- ٧٩١–٧٩٤م: تأليف كتب شارل وانعقاد مجمع فرانكفورت.
- ٢٥ كانون الأول/ديسمبر ٨٠٠م: تتويج شارلمان إمبراطوراً في كنيسة القديس بطرس بروما على يد البابا ليو الثالث.

تثبت هذه التواريخ أن النهضة التعليمية كانت مشروعاً إدارياً وسياسياً سابقاً للأزمة، غير أن النزاع العقدي كشف لبلاط الفرنجة عن حاجتهم لامتلاك أدوات الفلسفة واللغة اللاتينية لمقارعة اللاهوتيين البيزنطيين على قدم المساواة [٣٤، ص ٧٨؛ ٢٠، ص ١٣٠]. أما التتويج الإمبراطوري سنة ٨٠٠م، فرغم ما ذكره أينهارد من تفاجؤ شارلمان برغبة البابا [١٧، ص ٨١]، فإنه توّج قطيعة سياسية نضجت بإعلان خلو عرش القسطنطينية بعد سمل إيريني لعين ابنها قسطنطين السادس سنة ٧٩٧م واستئثارها بالحكم، مما سوّغ للبابوية نقل اللقب الإمبراطوري إلى شارلمان [٣٧، ص ٢٩٠؛ ١٤، ص ١٤٥].

خامسا: الرهبان المشارقة والعمارة في الغرب

مسألة نزوح الرهبان ومدرسة اليونان في روما

افترضت دراسات قديمة أن رهباناً بيزنطيين فروا من ملاحقات قسطنطين الخامس بعد مجمع هيريا، واستقروا في الغرب فأحدثوا نهضة فنية وأيقونوغرافية فيه. إلا أن النقد المصدري يُثبت أن تدفق الرهبان اليونان والسريان

إلى روما بدأ مبكراً منذ الثلث الأول للقرن السابع الميلادي، هرباً من الحروب الفارسية–البيزنطية وتداعيات الفتوحات الإسلامية المبكرة في سورية وفلسطين ومصر؛ مما يفسر تعاقب باباوات من أصول يونانية وسريانية بين سنتي ٦٧٨ و٧٥٢م [١٨، ص ١٩٩–٢١٥].

ولم تكن "مدرسة اليونان" (Schola Graeca) وحي كنيسة سانتا ماريا إن كوزميدين (Santa Maria in Cosmedin)، التي جددها البابا أدريان الأول، وليدة نزاع الصور، بل كانت حياً قديماً للجالية البيزنطية في روما [١٦، ص ١٤٢؛ ٣٠، ص ١٠٨]. أما كنيسة سانتا براسيدي (Santa Prassede) بفسيفسائها البديعة، فإنها لا ترجع لأدريان أو لعهد هيريا، بل شيدها وجددها البابا باسكال الأول (٨١٧–٨٢٤م) تزامناً مع الموجة البيزنطية الثانية لتحطيم الأيقونات [٣٠، ص ١٢٤]. وعليه، كان التأثير الفني البيزنطي تراكمياً ومستمراً، ولم يكن هجرة طارئة أحدثت انقلاباً فنياً مفاجئاً.

مصلى جيرميني–دي–بريه (نحو ٨٠٦م) وتجسيد الرؤية الغربية

ظلت تقاليد الفسيفساء حية في الغرب اللاتيني عبر ورش العمل في روما ورافينا [٣٠، ص ١١٥]. وتجلى التطبيق الأبرز للموقف العقدي الغربي في مصلى جيرميني–دي–بريه (Germigny–des–Prés) الذي شيده ثيودولف الأورلياني في ملكيته الخاصة ودُشن نحو سنة ٨٠٦م [٢٠، ص ١٥٤].

تخلو حنية المصلى تماماً من صور المسيح، أو مريم العذراء، أو القديسين؛ بل زُينت بفسيفساء زجاجية بديعة تمثل تابوت العهد تعلوه الكروبيم المحيطة به وتحف به ملائكة مجنحة، وتبرز من فوقه يد الله الرمزية (Manus Dei) ممتدة من السماء [٢٠، ص ١٦٠؛ ٣٨، ص ١٩٥]. وأسفل الحنية، نُقشت أبيات لاتينية بقلم ثيودولف تدعو المتأملين إلى معاينة التابوت والملائكة وذكر ثيودولف في صلواتهم.

جسد ثيودولف في هذا العمل أطروحته في كتب شارل: استثمار الفن المتوسطي الرفيع لتمثيل الرموز التوراتية المجردة دون تجسيد الذات الإلهية أو إتاحة موطئ قدم للركوع أمام الصور الحية، مما جعل المصلى وثيقة معمارية فريدة للمذهب الكارولنجي المعتدل [٢٠، ص ١٧٢].

سادسا: مناقشة السلسلة السببية

أطروحة بيرين في ضوء الشواهد المعاصرة

تظهر المعطيات السابقة أن العلاقة بين الفتوحات الإسلامية وصعود الغرب الكارولنجي لم تكن علاقة سببية مباشرة. ففي أطروحة هنري بيرين جانب تاريخي وجيه يتمثل في أن الفتوحات غيرت ميزان القوى في حوض البحر المتوسط وحاصرت بيزنطة وأضعفت ثقلها المادي [٤٢، ص ١٥٢]. غير أن افتراضه لانقطاع التجارة البحرية وتحول الغرب التام نحو الاقتصاد الزراعي المغلق أضحى غير مقبول في ضوء علم الآثار والتاريخ الاقتصادي الحديث [٣٣، ص ١٢٠؛ ٥٠، ص ٨٥]. فقد أثبت هودجز ووايتهاوس أن ضمور مدن الغرب يعود لأزمات عميقة في القرن الخامس تلت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية [٢٧، ص ٧٢].

ويلخص الجدول (٤) حلقات السلسلة السببية المفترضة ودرجة ما تسنده المصادر.

الجدول (٤): فحص السلسلة السببية التاريخية المفترضة واختبارها نقدياً

الحلقة السببية المفترضة	شواهد المصادر والأبحاث الأثرية المقارنة	درجة الترجيح والقبول التاريخي
الفتوحات الإسلامية ← انكماش بيزنطة وتضعضع ثقتها العقدي	تآكل الموارد وثبوت الأزمة النفسية [٢٥، ص ٤٥].	حقيقة تاريخية ثابتة ومبرهنة
السجال الإسلامي ← إجراءات ليو الثالث في تحطيم الأيقونات	معاصرة وسجال موازٍ دون وجود دليل نصي اقتباسي [٢١، ص ٨٠].	فرضية محتملة لكنها غير مثبتة وثائقياً
إجراءات نزاع الصور البيزنطي ← ابتعاد روما واستقلالها	تظافر الضرائب والنزاع المالي مع سقوط إيليريكوم وخطر اللومبارد.	راجحة كعامل تحفيز ضمن حزمة أسباب

الحلقة السببية المفترضة	شواهد المصادر والأبحاث الأثرية المقارنة	درجة الترجيح والقبول التاريخي
نزاع الصور البيزنطي ← سقوط إكسرخسية رافينا (٧٥١م)	السبب المباشر هو الغزو العسكري اللومباردي بقيادة إيستولف.	دعوى غير مثبتة ومردودة عسكرياً
التهديد اللومباردي وحاجة بيبين ← حلف ٧٥٤م ومنحة ٧٥٦م	استغاثة ٧٣٩م، ومسح سان دوني، وتتويج بيبين [٣٧، ص ٨٥].	حقيقة تاريخية حاسمة وموثقة
نزاع الصور في مجمع نيقية ← نشأة النهضة التعليمية للفرنجة	الإصلاح التعليمي بدأ قبل وصول ترجمة نيقية بسنوات (٧٨٩م).	مردودة ومنفية بالتسلسل الزمني للوثائق
السجال ضد نيقية الثاني ← بلورة لاهوت غربي مستقل	كتب شارل وقرارات مجمع فرانكفورت [٢٠، ص ١٢٠].	حقيقة لاهوتية وسياسية ثابتة
نزوح رهبان هيريا (٧٥٤م) ← إحياء وتجديد فنون الغرب	التواجد الشرقي قديم (٦٧٨م)، وأثر النزوح محدود وضئيل.	دعوى مبالغ فيها تاريخياً وغير دقيقة

الإحياء الكارولنجي

يوافق هذا الفحص مع تحليل إرفين بانوفسكي حول الإحياءات الوسيطة المتعددة؛ إذ لم يكن الإحياء الكارولنجي قطيعة ثورية بل إعادة صياغة وتوليف للتراث اللاتيني القديم داخل قالب لاهوتي مسيحي جديد [٤٠، ص ٤٢]. وتوزعت روافد هذا الإحياء على بيئات فكرية متعددة خارج بلاد الغال: الرافد الأنجلوسكسوني ممثلاً بألكوين اليوركي ومدرسته، والرافد الإيطالي–اللومباردي ممثلاً بنحويي بافيا وبولس الشماس وبطرس البيزي، والرافد القوطي–الإيبيري ممثلاً بثيودولف الأورلياني حاملاً الإرث الإيزيدوري المتمرس في السجال العقدي [٣٤، ص ٨٥؛ ١٤، ص ١٢٥].

سابعاً: نتائج الدراسة

١- لم تكن حركة تحطيم الأيقونات البيزنطية اقتباساً ميكانيكياً لتعاليم الإسلام، بل استجابة داخلية مأزومة لهزائم بيزنطة العسكرية أمام الفتوحات وكوارثها الطبيعية، في إطار مساعي استعادة الرضا الإلهي وتطهير العبادة، وسط مناخ سجالي ساد الشرق المتوسطي.

٢- ترجح القراءة النقدية للمصادر أن الرواية المتأخرة لإزالة صورة المسيح من بوابة خالكي سنة ٧٢٦م ومقتل الجندي لا تصح، وأنها من نسج المناقب التي كُتبت بعد انتصار مكرّمي الصور.

٣- كان سقوط إكسرخسية رافينا سنة ٧٥١م نتيجة للغزو اللومباردي وعجز بيزنطة الدفاعي الناتج عن حروبها مع البلغار والعباسيين، ولم يكن الخلاف العقدي حول الصور إلا عاملاً نسف الإجماع والولاء السياسي لإمبراطور القسطنطينية في وسط إيطاليا.

٤- سبق التوجه البابوي نحو بلاط الفرنجة حلف سنة ٧٥٤م بقرابة عقد ونصف (استغاثة غريغوريوس الثالث بشارل مارتل ٧٣٩م)، مما يدل على أن باعث التحالف كان أمنياً وسياسياً ارتبط بالخطر اللومباردي المباشر وحاجة بيبين القصير لشرعية تتويجه، وتأخر أثر النزاع العقدي كعامل مستقل.

٥- سبقت حركة الإصلاح التعليمي والخط الكارولنجي أزمة مجمع نيقية الثاني وقرارات فرانكفورت بسنوات، مما ينفي دور نزاع الصور كعلة منشئة للنهضة الكارولنجية، مع التسليم بأن السجال وفر الحافز لبلورة لاهوت لاتيني غربي مستقل عبر كتب شارل.

٦- استقر الرهبان اليونان والسريان في روما منذ القرن السابع نتيجة الحروب الفارسية والفتوحات الإسلامية المبكرة، لا فراراً من مجمع هيريا، ويُعد مصلى جيرميني-دي-بريه نموذجاً معمارياً فريداً لتوظيف التقاليد المتوسطية في صياغة لاهوت كارولنجي رمزي يرفض تجسيد المقدس.

الخاتمة والتوصيات

الخاتمة:

بيّنت هذه الدراسة أن التحول الكبير لمملكة الفرنجة وقيام الإمبراطورية الكارولنجية كان محصلة أسباب سياسية واجتماعية متعددة، لم يكن نزاع الأيقونات فيها سوى عامل معجل ومظهر لتصدعات أعمق كانت تعمل في جسد العالم المتوسطي. ويبقى أثر الفتوحات الإسلامية غير المباشر قائماً بقوة بتغيير رقعة بيزنطة وتشتيت قوتها العسكرية، مما مكّن البابوية من إقامة كيان سياسي مستقل في الغرب.

وتقف هذه الدراسة عند حدود منهجية تقتضيها طبيعة المادة التاريخية:

- اندثار مصنفات حركة تحطيم الأيقونات البيزنطية وكتب مجمع هيريا، والاعتماد الإجباري على المقتطفات الانتقائية التي أوردها خصومهم لدحضهم.
- فقدان النص الأصلي لـ منحة بيبين (٧٥٦م)، وبناء الرواية التاريخية على وثائق السجلات البابوية المتأخرة المشوبة بالانحياز السياسي.
- غياب وثائق سجالية مباشرة ومتبادلة بين بلاط دمشق أو بغداد وبلاط القسطنطينية حول فلسفة الصور في تلك الحقبة، مما يبقي الاستنتاجات في دائرة التفاعل السياقي المقارن.

وتوصي الدراسة بفتح آفاق بحثية جديدة في: التدقيق الأركيولوجي لطبقات تخريب الفسيفساء في كنائس بلاد الشام في العصرين الأموي والعباسي، والتحليل الكوديكولوجي المعمق لمخطوط الفاتيكان لـ كتب شارل (Vat. Lat. ٧٢٠٧) لكشف مراحل التحرير البلاطي الكارولنجي.

التوصيات

١- أقسام التاريخ في الجامعات ومراكز الأبحاث العربية: تطوير مناهج تاريخ العصور الوسطى عبر إدراج مساقات متخصصة في تاريخ حوض البحر المتوسط في القرن الثامن تعتمد التحليل السببي المتعدد وتتجاوز التفسير بسبب واحد.

٢- مشاريع الترجمة والتحقيق الأكاديمي: إطلاق مشروع عربي لترجمة وتحقيق المصادر الوسيطة البيزنطية واللاتينية المتعلقة بحقبة التحول (حولية ثيوفانس، تاريخ نقيفوروس، سير الباباوات، وكتب شارل) وفق القواعد الفيلولوجية الرصينة.

٣- الدراسات الباليوغرافية والكوديكولوجية: استثمار الصور الرقمية عالية الدقة للمكتبة الفاتيكانية لدراسة حواشي وتعليقات مخطوطات البلاط الكارولنجي وتتبع تشكل الموقف الغربي من الشرق.

٤- المؤسسات والدوائر الأثرية في المشرق العربي: إجراء مسوحات أثرية وطباقية لأرضيات الفسيفساء المتضررة في كنائس الأردن وفلسطين لتأريخ طبقات الترميم والتعديل، وربطها الدقيق بالسياقات السياسية والتشريعية المعاصرة لها.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر العربية

١. البلاذري، أحمد بن يحيى (ت. ٢٧٩هـ/٨٩٢م) (١٩٨٧م): فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت: مؤسسة المعارف.

٢. الطبري، محمد بن جرير (ت. ٣١٠هـ/٩٢٣م) (١٩٦٧م): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، القاهرة: دار المعارف.

المراجع العربية

٣. عاشور، سعيد عبد الفتاح (١٩٧٦م): أوربا العصور الوسطى، ج ١: التاريخ السياسي، ط٨، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

٤. العريني، السيد الباز (١٩٨٢م): الدولة البيزنطية ٣٢٤–١٤٥٣م، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

المراجع الأجنبية

5. Anastos, Milton V. (1955): "The Argument for Iconoclasm as Presented by the Iconoclastic Council of 754," in Late Classical and Medieval Studies in Honor of A. M. Friend, Jr., ed. Kurt Weitzmann, Princeton, NJ: Princeton University Press, pp. 177–188.
6. Auzépy, Marie-France (1990): "La destruction de l'icône du Christ de la Chalcé par Léon III: propagande ou réalité?," Byzantion, 60, pp. 445–492.
7. Auzépy, Marie-France (2007): L'histoire des iconoclastes, Bilans de recherche 2, Paris: Association des Amis du Centre d'Histoire et Civilisation de Byzance.
8. Boretius, Alfred (ed.) (1883): Capitularia Regum Francorum, Monumenta Germaniae Historica, Leges, II/1, Hannover: Hahnsche Buchhandlung.
9. Brown, Peter (1973): "A Dark-Age Crisis: Aspects of the Iconoclastic Controversy," The English Historical Review, 88(346), pp. 1–34.
10. Brown, Peter (1974): "Mohammed and Charlemagne by Henri Pirenne," Daedalus, 103(1), pp. 25–33.
11. Brubaker, Leslie (2012): Inventing Byzantine Iconoclasm, London: Bristol Classical Press.
12. Brubaker, Leslie, & Haldon, John (2011): Byzantium in the Iconoclast Era, c. 680–850: A History, Cambridge: Cambridge University Press.
13. Chazelle, Celia M. (1986): "Matter, Spirit, and Image in the Libri Carolini," Recherches augustiniennes, 21, pp. 163–184.
14. Collins, Roger (1998): Charlemagne, Basingstoke: Macmillan; Toronto: University of Toronto Press.

15. Costambeys, Marios; Innes, Matthew; MacLean, Simon (2011): The Carolingian World, Cambridge: Cambridge University Press.

16. Davis, Raymond (trans.) (1992): The Lives of the Eighth-Century Popes (Liber Pontificalis), Translated Texts for Historians 13, Liverpool: Liverpool University Press.

17. Einhard (1969): "The Life of Charlemagne," in Two Lives of Charlemagne, trans. Lewis Thorpe, Harmondsworth: Penguin Books.

18. Ekonomou, Andrew J. (2007): Byzantine Rome and the Greek Popes: Eastern Influences on Rome and the Papacy from Gregory the Great to Zacharias, A.D. 590–752, Lanham, MD: Lexington Books.

19. Freeman, Ann (1985): "Carolingian Orthodoxy and the Fate of the Libri Carolini," Viator, 16, pp. 65–108.

20. Freeman, Ann (2003): Theodulf of Orléans: Charlemagne's Spokesman Against the Second Council of Nicaea, Variorum Collected Studies Series, Aldershot: Ashgate.

21. Gero, Stephen (1973): Byzantine Iconoclasm during the Reign of Leo III, with Particular Attention to the Oriental Sources, Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium 346, Subsidia 41, Louvain: Secrétariat du CorpusSCO.

22. Gero, Stephen (1977): Byzantine Iconoclasm during the Reign of Constantine V, with Particular Attention to the Oriental Sources, Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium 384, Subsidia 52, Louvain: Secrétariat du CorpusSCO.

23. Grabar, Oleg (1973): The Formation of Islamic Art, New Haven and London: Yale University Press.

24. Grierson, Philip (1968): Catalogue of the Byzantine Coins in the Dumbarton Oaks Collection and in the Whittemore Collection, vol. 2: Phocas to Theodosius III, 602–717, Washington, DC: Dumbarton Oaks Research Library and Collection.

25. Haldon, John F. (1990): Byzantium in the Seventh Century: The Transformation of a Culture, Cambridge: Cambridge University Press.

26. Herrin, Judith (1987): The Formation of Christendom, Princeton, NJ: Princeton University Press.

27. Hodges, Richard, & Whitehouse, David (1983): Mohammed, Charlemagne and the Origins of Europe: Archaeology and the Pirenne Thesis, London: Duckworth; Ithaca, NY: Cornell University Press.

28. John of Damascus (2003): Three Treatises on the Divine Images, trans. Andrew Louth, Crestwood, NY: St Vladimir's Seminary Press.

29. Kitzinger, Ernst (1954): "The Cult of Images in the Age before Iconoclasm," Dumbarton Oaks Papers, 8, pp. 83–150.

30. Krautheimer, Richard (1980): Rome: Profile of a City, 312–1308, Princeton, NJ: Princeton University Press.

31. Louth, Andrew (2002): St John Damascene: Tradition and Originality in Byzantine Theology, Oxford: Oxford University Press.

32. Mansi, Giovanni Domenico (ed.) (1759–1798): Sacrorum conciliorum nova et amplissima collectio, 31 vols., Florence and Venice: Antonio Zatta (vols. 11 [1765], 13 [1767] cited).

33. McCormick, Michael (2001): Origins of the European Economy: Communications and Commerce, A.D. 300–900, Cambridge: Cambridge University Press.

34. McKitterick, Rosamond (ed.) (1994): Carolingian Culture: Emulation and Innovation, Cambridge: Cambridge University Press.

35. McKitterick, Rosamond; van Espelo, Dorine; Pollard, Richard; Price, Richard (trans. and eds.) (2021): Codex Epistolaris Carolinus: Letters from the Popes to the Frankish Rulers, 739–791, Translated Texts for Historians 77, Liverpool: Liverpool University Press.

36. Nikephoros, Patriarch of Constantinople (1990): Short History, text, translation and commentary by Cyril Mango, Dumbarton Oaks Texts 10, Washington, DC: Dumbarton Oaks Research Library and Collection.

37. Noble, Thomas F. X. (1984): The Republic of Saint Peter: The Birth of the Papal State, 680–825, Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

38. Noble, Thomas F. X. (2009): Images, Iconoclasm, and the Carolingians, Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

39. Ostrogorsky, George (1969): History of the Byzantine State, trans. Joan Hussey, rev. ed., New Brunswick, NJ: Rutgers University Press.

40. Panofsky, Erwin (1960): Renaissance and Renascences in Western Art, Stockholm: Almqvist & Wiksell.

41. Piccirillo, Michele (1993): The Mosaics of Jordan, Amman: American Center of Oriental Research.

42. Pirenne, Henri (1937): Mahomet et Charlemagne, Paris: Félix Alcan; Brussels: Nouvelle Société d'Éditions.

43. Reynolds, L. D., & Wilson, N. G. (2013): Scribes and Scholars: A Guide to the Transmission of Greek and Latin Literature, 4th ed., Oxford: Oxford University Press.

44. Sahner, Christian C. (2017): "The First Iconoclasm in Islam: A New History of the Edict of Yazīd II (AH 104/AD 723)," Der Islam, 94(1), pp. 5–56.

45. Schick, Robert (1995): The Christian Communities of Palestine from Byzantine to Islamic Rule: A Historical and Archaeological Study, Princeton, NJ: Darwin Press.

46. Scholz, Bernhard Walter, with Barbara Rogers (trans.) (1970): Carolingian Chronicles: Royal Frankish Annals and Nithard's Histories, Ann Arbor: University of Michigan Press.

47. Theodulf of Orléans (1998): Opus Caroli regis contra synodum (Libri Carolini), ed. Ann Freeman with Paul Meyvaert, Monumenta Germaniae Historica, Concilia II, Supplementum I, Hannover: Hahnsche Buchhandlung.

48. Theophanes the Confessor (1997): The Chronicle of Theophanes Confessor: Byzantine and Near Eastern History, AD 284–813, trans. Cyril Mango and Roger Scott, Oxford: Clarendon Press.

49. Vasiliev, Alexander A. (1956): "The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid II, A.D. 721," Dumbarton Oaks Papers, 9/10, pp. 23–47.

50. Wickham, Chris (2005): Framing the Early Middle Ages: Europe and the Mediterranean, 400–800, Oxford: Oxford University Press.